الثقافة و الهوية

(قراءة نقدية لواقع الثقافة و المثقف من خلال التجربة النقدية عند إدوارد سعيد)

أ. وردة مداح
د. عبد القادر دامخي
جامعة الحاج لخضر باتنة (الجزائر)

ملخص:

هذه الدراسة تتناول موضوع خصب تلج من خلاله عوالم القراءة النقدية لواقع الثقافة و المثقف وعلاقتهما بالهوية وهذا من خلال تجربة الناقد والمفكر الفلسطيني **إدوارد سعيد** بوصفه واحدا من أساطين الثقافة المضادة المعاصرة في الغرب؛ ولأنه نموذج ثر يعكس - بحق- مدى تجسيد الهوية الثقافية لتصير القراءة النقدية لواقع الثقافة والمثقف بمثابة عنصر اختراق وابداع ومن ثم يصبح إنتاج النصوص بمثابة إنجاز نصي بارتباطه بثنائية الثقافة والهوية.

Résumé :

Cette étude se porte sur le monde de la lecture critique afin de traiter la relation qui existe entre la culture et l'identité culturelle en fait, cette analyse se fait à travers l'expérience réalisée par le penseur palestinien **Edward Saïd** considéré comme l'un des plus célèbres contemporains en occident en effet, ce spécialiste représente un modèle riche qui reflète vraiment l'incarnation de l'identité culturel dans le but de faire de la lecture critique un élément révolutionnaire et créatif. Ce qui induit à la production de textes regroupant à la fois, la culture et l'identité.

مقدمة:

تعج الساحة النقدية الادبية العربية بكوكبة من الدارسين ، ومن بين أولئك الناقد الفلسطيني إدوارد سعيد الذي يعد من بين الاسماء الذائعة الصيت، وأحد أساطين الثقافة المضادة المعاصرة في الغرب، بحيث استطاع أن يشق طريقه وأن يضع لنفسه منهجا نقديا متميزا فلم تكن تجربته النقدية هامشية على تخوم النقد العربي؛ لأنه لم يكن بمثابة باحث أكاديمي أو كاتب مقالة فحسب، بل كان بمثابة متكلم باسم الشرق في الغرب ومنافح عن حق ابناء العالم الثالث في تمثيل أنفسهم وتشكيل هوياتهم الثقافية والوطنية، فوصف بأنه مثال جيد للحوار بوصفه مقيما بين الثقافات وعلى حدودها المشتركة.

أضاف ادوارد سعيد جهدا نقديا متميزا فكان ملهما لعدد كبير من النقاد والباحثين في الدراسات الثقافية - بخاصة- ، بحيث يعد أول ناقد حرك الاهتمام باتجاه النقد الثقافي من خلال معالجته لأبرز القضايا التي تتعلق بمفهوم المثاقفة والتداخل الثقافي.

ومن ثم يتسع مفهوم الناقد في منظومة ادوارد سعيد الفكرية النقدية بالمفهوم الواسع الذي يشمل : المفكر ، المثقف ، الأديب ، السياسي ؛ لذلك كان ادوارد سعيد ناقدا عالمي الأفق مثقفا واسع الاطلاع، متعدد الاهتمامات، ناقدا يحسن القراءة لتصير هذه الاخيرة عنصر اختراق وإبداع لتنتقل لديه الدراسات النقدية من الانطباعية والوصفية المبسطة إلى أفاق أرحب بالانتقال من منطق المساءلة لما هو قائم إلى ما ينبغي أن يكون.

مشكلة الدراسة:

في الحقيقة أن هذا الوضع المعرفي المريج قد أغراني بطرح جملة من المساءلات المنهجية حول موضوع الثقافة والهوية في الوطن العربي من خلال قراءة نقدية لواقع الثقافة والمثقف من خلال التجربة النقدية عند إدوارد سعيد؛ ومن ذلكم مثلا مجموعة فرضيات صغرى تمخضت عنها هذه الإشكالية الكبرى أو بالأحرى إشكالية كبرى أنتجت مجموعة كبيرة من الفرضيات جعلتنا نتساءل بالقول: هل ارتباط الهوية بالثقافة يتأتى من كونها قيم مطلقة خالـــدة تساهم في صوغ حقيقة الإنسان ؟ وهل ذلك يعني أن قراءة الهوية ومساءلتها يندرج في إطار نشاط إنساني ضروري ؟ وهل الارتقاء بهوياتنا والإعلاء من شأنها يكون عبر عملية التساؤل الدائم حول من نحن ؟

ومن نكون ؟ وكيف صرنا على ما نحن عليه وما هي العناصر المشكلة لهوياتنا ؟ وما عناصر ثبات وتحول الهوية ؟ وكيف تصبح الهوية بارتباطها بالثقافة وسيلة لتوسيع مدار حريتنا وطموحاتنا ؟ وهل الثقافة هي صانعة الهوية؟ أم أن الهوية هي الموجدة للثقافة ؟... وهل يمكن أن يتخلى النص عن هويته لصالح هويات أخرى ؟ وهل الانجاز النصي المرتبط بثنائية الثقافة والهوية عند **إدوارد سعيد [كأنموذج نقدي متفرد]** هو عبارة عن ثنائية : قـــراءة الرسمي والمسكوت عنه؛ أي قراءة نصوص الحكومة والمعارضة فقط، أما أن القراءة تتسع لقراءة نصوص الأغلبية الصامتة التي تعبر عن الحساسية الشعبية خارج الحكومة والمعارضة؟ أم هي قراءة الواحد المتعدد؟ وهل حصر **إدوارد سعيد** قراءاته – يا ترى – من خلال جدلية الثقافة والهوية في ثنائية الطباقية (بين الاستعمار

والمقاومة مثلا) دون التعمـــق في قراءة بعض الظواهر الثقافية العربية مما جعل تحليلاته أحادية ؟ وهل الخطاب الثقافي عند **إدوارد سعيد** يقوم – حقا – على مبدأ استعمال الفكر السياسي في تحليل الظواهر الثقافية بوصفه عنصرا من عناصر التحليل وقراءة النصوص وحقلا من حقول العلوم الإنسانية ؟ وهل مورست الكتابة والقراءة النقدية عند **إدوارد سعيد** من منطلق الثنائيات المتضادة : القومي / التقليدي، التحرر / التبعية ، المثاقفة / الهوية، الثقافة / القومية، الثقافة / الامبريالية...؟ وهل يعني ذلك أن **إدوارد سعيد** يأتي في طليعة محللي الخطاب الاستعماري ؟ و هل سلك **إدوارد سعيد** منهجا جديدا مستحدثا من خلال تحليله للخطاب الاستعماري- في الوطن العربي - ؟ وهل ذلك كله يؤكد لنا أن الاهتمام بثنائية الثقافة والهوية عند **إدوارد سعيد** فتحت حقلا جديدا من البحث الأكاديمي من خلال تحليل الخطاب الاستعماري ؟ وهل يعد كتاب الإستشراق هو نقطة انطلاق الدراسات المتعلقة بالهوية الثقافية في الوطن العربي؟؟؟...

اهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى الوقوف عند عتبات الثقافة الجديدة والرؤى المعاصرة والكشف عن علاقة الهوية بالثقافة، وهذا من مبدأ أن الهوية والثقافة تتبادلان صلات وثيقة؛ حيث أن استيعاب ثقافة يعني في المقام الأول إستيعاب عناصر هويتها؛ ولأن الهوية والثقافة تقعان في قلب ظاهرات التكوين الانساني لذلك ،يمكن القول أن، الصراعات المستقبلية سوف تشغلها عوامل ثقافية أكثر منها إقتصادية أو إيديولوجية؛ لأن الثقافة هي العنصر المتحرك في الهوية لأنها تكتسب وتتطور وتتحول.

ومن أجل ذلك تناولت هذه الدراسة موضوع الهوية والثقافة من خلال تناولها لأنموذج نقدي متميز ألا وهو الناقد الفلسطيني إدوارد سعيد باعتباره منبعا من بين تلك المنابع التي أصبحت تمد النصوص المعاصرة بالقوة وذلك من خلال تناول مصطلحات وإيحاءات جديدة وطريفة لمواكبة الحداثة أهمها الهوية والثقافة، حيث يرى إدوارد سعيد أن للثقافة سطوة فكرية تتغلغل في أذهان الأفراد وهوياتهم؛ مما يتعين على المثقف الواعي أن يتخذ موقفا معارضا من الثقافة السائدة ، فلا يكتفي بالسكوت والتبعية، ومن هنا جاء استعمال إدوارد سعيد الفكر السياسي في تحليل الظواهر الثقافية؛

باعتبار السياسة علم مثل العلوم الانسانية الأخرى تقرأ جوانب النص فهي بمثابة عنصر من عناصر التحليل وحقلا من حقول العلوم الانسانية.

وبهذا فهذه الدراسة النقدية لمثل هذا الموضوع الثر من خلال تناول انموذج نقدي متميز، تنتمي إلى ــ إن صحت تسميته بــ " نقد نقاد الحداثة " وهي ــ كما أحسبها ــ دراسة جادة عميقة جريئة دقت بابا من أبواب تلك التجارب النقدية العربية التي هي أيضا جريئة وعميقة من خلال إثارتها لإشكاليات كثيرة ومعاصرة فهذه الدراسة لم تكتف بالتنظير ، وإنما ولجت عالم التطبيق من خلال قراءة بعض كتب إدوارد سعيد مثل كتاب "الإستشراق" وكتاب"الثقافة والامبريالية" وكتاب "صورة المثقف" ...

ومن أجل ذلك فهذه الدراسة من خلال تناولها لموضوع خصب، المتمثل في القراءة النقدية لواقع الثقافة والمثقف وعلاقتهما بالهوية من خلال تجربة نقدية معاصرة والمتمثلة ــ بطبيعة الحال ــ في تجربة الناقد الفلسطيني إدوارد سعيد ؛ تهدف كذلك بتواصلها مع حركات النقد الحداثي والمعاصر في الحث بالانتقال بالدراسات النقدية الحديثة من الانطباعية والوصفية المبسطة إلى آفاق أرحب من خلال الانتقال من منطق المساءلة لما هو قائم إلى ما ينبغي أن يكون ، لتصير القراءة النقدية لواقع الثقافة والمثقف عنصر اختراق وإبداع.

المنهجية المتبعة في الدراسة:

سلكت في هذه الدراسة المنهج الاستقرائي بإطلاعي الواسع على مختلف المؤلفات التي لها علاقة بالثقافة والهوية ثم المنهج التحليلي الذي يقضي دراسة معمقة لما جمعته من مادة من اجل الوقوف على حيثيات هذه التجربة النقدية المتفردة بغرض إثراء صلب الموضوع، كما كنت أحيانا أجنح إلى المنهج التاريخي للإفادة من معطى الاستقصاء فيه، فعرضت بعض أعماله و عمدت أحيانا إلى نقدها والتعليق عليها كلما كانت الفرصة مواتية لذلك.

أود التنويه إلى أن كل ما يبدو على السطح يتعلق بشخصية الباحث أو الناقد بقدر ما يتعلق بموضوع الدراسة غير أن هناك علاقة وطيدة بين الدارس والموضوع الذي أتناوله بالدراسة. فربما تكون بعض الأحكام التي يصدرها هذا الدارس أو ذاك على موضوعه متسمة بالذاتية، ولكنني سعيت بقدر الإمكان أن أكون موضوعية وأنا أتناول هذه الشخصية النقدية المحدثة وعلاقتها بالهوية الثقافية، وإن كنا نعتقد أنه ليس من السهل على أي باحث أن يرصد فكر إدوارد سعيد النقدي إلا بعد امتلاكه لمحة عن حياته بوصفه نموذج متفرد يعكس – بحق – مدى تجسيد ثنائية الثقافة والهوية في الواقع وهذا ما دفع الى محاولة تكوين صورة شاملة عن فكر شخصية سعيد الفلسطينية المتميزة إذا ما قورنت بمعاصريها ومن هنا كان الاعتماد على المنهج التاريخي في هذا الجانب كذلك.

اولا: ملامح الخطاب السياسي و حقيقة الهوية الوطنية:

ومن ثم فالملاحظ أن ادوارد سعيد يرتكز على قراءة جديدة للخطاب الادبي المعاصر فينتهج منهجا ينصرف فيه إلى معاني جديدة هامشية بالتغلغل في باطن النص، وبذلك إنتاج قراءة جديدة وإضافات أضافها الناقد إلى عالم القراءة النقدية بغض النظر عما تحمله من معاني للاستهجان أو الاستحسان و المغالاة في بعض جوانبها، بخاصة ما يمس الفكر السياسي لديه والأفكار الأورو أمريكية.

ومن خلال المتابعة والاستقراء لأهم أفكار الناقد وميولا ته، يتضح لنا ملامح الخطاب السياسي في خطاباته ، فهو يعالج الكتابة السياسية بمصطلح أدبي، وبأسلوب في الكتابة يتسم بحدته وعناده، وهذا يتوافق وشخصية ادوارد سعيد المركبة ، الذي يهاجم تارة الأسلوب المعاصر للسياسات الأمريكية والإسرائيلية وتارة أخرى يدافع عن شرعية الثقافة والهوية الفلسطينية، وعن عدالة هذه القضية وحقوق الشعب الفلسطيني، فهو بمثابة" المثقف أو الناقد الذي يحمل في هذا المجال مسؤولية علمية وأخلاقية لتأدية رسالة إنسانية عامة، وبذل الجهود وحتى التضحيات في سبيل تلك الرسالة، وعدم الانحياز للسلطة أو للمؤسسات الاجتماعية أو البيروقراطية المهيمنة(...)، فتتضمن في أعماقها عملية "مقاومة"،

مقاومة للهيمنة الثقافية والامبريالية"[i]، وبذلك تتركز اهتماماته والموضوعات التي تناولها حول العلاقة بين القوة والهيمنة الثقافية الغربية من ناحية وتشكيل رؤية الناس للعالم والقضايا؛ أي معالجة ثنائية "الثقافة والهوية"، فكانت من أهم القضايا التي شغلت حيزا كبيرا في كتاباته، فهو يشرح لنا من خلالها كيف أن الإعلام الغربي والخبراء وصناع السياسة الغربية والامبريالية الثقافية الغربية تتظافر كلها لتحقيق مصالح غربية غير عادلة في نهاية المطاف، وذلك عن طريق إيجاد خطاب غربي منحاز ثقافيا إلى الغرب ومصالحه؛ لذلك " فقد رفض سعيد أن يتقوقع في بيئته الأكاديمية كأستاذ مرموق للأدب الانجليزي في جامعة كولومبيا الأمريكية وفضل(...) أن يكون مدافعا غن القضية الفلسطينية في قلعة الغرب المعادية لحقوق الفلسطيني، وأن يفكك المفاهيم الزائفة المصطنعة التي بناها الغرب خلال قرون من الزمن عن نفسه وعن الأخر"[ii].

ثانيا: الهوية الثقافية و صورة المثقف الجديد:

يشير ادوارد سعيد إلى أهمية دور المثقف، هذا الأخير الذي قال عنه المفكر الفرنسي "**جوليان بندا**" أنه ينتمي الى "جماعة صغيرة جدا من الملوك الفلاسفة المهوبين المتفوقين الذين يتمتعون بالأخلاق العالية ويمثلون، ومن ثـــم ضمير البشرية"[iii]. حيث حصل به الكثير من التغيير بعد الحداثة، فأصبح المثقفون ينتمون الى الحكومات والمؤسسات التي من المفترض أن يواجهونها بأخطائها، والتي يطالبونها بالحرية الفكرية للإنسان، أصبحت تحدد لهم مسبقا أطر الحرية.

ولأن المثقف له دور جد فعال في اختراق العقول وتغيير مسار المجتمعات إلى الأفضل"فهو أشبه [في رأي إدوارد سعيد] بإنسان نجا من سفينة غارقة يتعلم كيف يعيش بمعنى ما مع الأرض لا عليها"[iv]؛ فالثقافة إذن هي بمثابة عنصر كوني يتسم بالشمولية والكونية فتسمو على الإقليمية والمحلية والقومية والمكانية، فتتسم بلا آنية ولا عرقية بوصف أن ثقافات العالم متداخلة وإنها تأخذ من بعضها البعض وهذا ما يغني الثقافة على المدى البعيد، لهذا فالثقافة بمفهومها الجديد تساهم في إخراج الثقافة العربية من برجها العاجي الذي ظلت تقبع فيه ردحا من الزمن، فهي ليست نمطا من العيش يمارسه المجتمع بتلقائية فحسب ، بل هي أوسع من ذلك.

إن الثقافة -بذلك- بمفهومها - السابق- الواسع، تقع في قلب ظاهرات الهوية لتتحول إلى عنصر متحرك بداخلها لأنها تُكتسب وتتطور وتتحول، ويتضح ارتباطها الشديد بالهوية من خلال إدراك علاقتها باللغة، فالثقافة واللغة تتبادلان صلات وثيقة؛ حيث أن استيعاب ثقافة يعني في المقام الأول استيعاب لغتها، لتمتلك الثقافة بعدها سطوة فكرية تسمح لها بالتغلغل في أذهان الأفراد مما يتعين على المثقف الواعي المتحدث باسم أغلبية أفراد مجتمعه أن يتخذ موقفا معارضا من الثقافة السائدة، فلا تكتفي بالسكوت والتبعية لأن"المثقف أساسا معني بالمغرفة والحرية"[v] ، ومن هذا المبدأ -ربما- كان اعتماد إدوارد سعيد على الفكر السياسي في تحليله للظواهر الثقافية، باعتبار السياسة نافذة مباشرة يطل من خلالها المثقف الواعي من أجل التصحيح والسعي إلى الانعتاق من ربقة كل ما هو سائد، ومن ربقة الإيديولوجيات الحديثة والمفعمة حتى الثمالة بالنزعة الاستشراقية، ويتأتى هذا بإيقاظ الفكر العربي والإسلامي وتنبيهه بالكشف عن البنى اللامرئية الكامنة وراء المقول والمكتوب في الخطاب المرئي المتمثل في "السلطة والمعرفة".

ثالثا: الخطاب الاستشراقي ومعركة الدفاع عن الهوية:

وبذلك نجد سعيد يبذل جها من خلال عرضه للمغالطات والصور المشوهة المحرفة والمتوارثة عن الشرق، ويتضح هذا من خلال متابعة"تجربة إدوارد سعيد مع الاستشراق وخصوصا كتبه من قبيل (الاستشراق، والثقافة والامبريالية، وتغطية الإسلام وصور المثقف) فإننا بإزاء نتاج لم يفضح النتاج الاستشراقي وحسب، بل ساهم وأسس بجدارة لهذا النوع من النقد الموسوعاتي، الذي تحتاج إليه أي ثقافة أو حضارة معاصرة(...) لتتسلح بهذه النظرة الثرية

والمتنوعة في المجال الثقافي والحضاري"[vi]. ولهذا يمكن القول أن " الاستشراق يشير إلى الشرق، والشرق وفقا لسعيد هو نتاج الجغرافيا الخيالية لأولئك الناس الذين جاؤوا لمعرفة أنفسهم وثقافتهم وأراضيهم لاستثمار المساحة بمعان متشعبة، فهناك الاحتلال والسيطرة على الاراضي بالقوة المسلحة (...) فالشرق هو صورة المرآة المشوهة للغرب (...) وبلغة أقل تأسيسية، لن يكون هناك أي غرب دون التمثيل الجوهري الغربي للآخر(...) فيعرف سعيد الاستشراق [بأنه] مؤسسة تتعامل مع الشرق من خلال العبارات وارؤى السلطوية (...) الاستشراق هو النمط الغربي من الهيمنة والسلطة التي من خلالها يعاد هيكلة الشرق"[vii].

ولعل أن سعيد حارب فكرة الاستشراق من خلال تجربة المنفى التي خلقت له فضاء من الرؤى البعيدة للذات والآخر في ظل بعده عن الوطن، فنجده يتحدث عن المنفى من وجهة نظر خاصة ومتفردة فيقول في معرض إجابته عن التساؤل الموجه إليه عن ماذا يعني المنفى بالنسبة إليه، فيجيب بالقول:"...أنا أدرك أنني أكثر من شخص واحد، أو أنني على الاقل ليست هوية أحادية وثابتة ومتجانسة، وبالنسبة إلي شرط المنفى يعني الحرية في اقتفاء هذه الخيارات دون أن أعبأ بالمكان(...)"[viii]. وتتضح فكرة الانتماء ولا إنتماء لدى سعيد من خلال تعبيره عن أزمة تعدد انتمائه، فهو خارجي من خلال سيرته الذاتية في كتابه الموسوم بـــ:"خارج المكان" فهو توضيح لهذه النظرة لكن في الوقت ذاته يحاول سعيد في كتابه السابق الذكر وفي كثير من أعماله أن لا يفصل نفسه وانتمائه للعالم العربي فنجده منافحا عن الهوية العربية فيقول : " والانفصام الكبير في حياتي هو ذلك الانفصام بين اللغة العربية، لغتي الأم، وبين اللغة الإنجليزية وهي اللغة التي بها تعلمت وعبرت تاليا بما أني باحث ومعلم(...) إلى جانب اللغة كانت الجغرافية في مركز ذكرياتي عن تلك السنوات الأولى خصوصا جغرافية الارتحال من مغادرة ووصـــول ووداع و منفى وشوق وحنين إلى الوطن وانتماء، ناهيك عن السفر ذاته فكل واحد من الأمكنة التي عشت فيها(...) يملك شبكة كثيفة ومركبة من العناصر الجاذبة، شكلت جزءا عضويا من عملية نمـــوي واكتسابي هويتي وتكويني وعيي لنفسي و للآخرين..."[ix].

ومن الواضح أن إدوارد سعيد يحاول معالجة ه

ويته الوطنية والقومية فيتبنى الدفاع عن انتمائه الفلسطيني بوصفها قضية قومية فيؤكد ذلك في قوله "نحن في وضعية فريدة، إذ أننا شعب يقول أعداؤه أن لا وجود له، لذلك يعني مفهوم الحقوق بالنسبة إلينا حق الوجود كشعب، كجسد جماعي متكامل، عوضا عنه كمجموعة لاجئين، أناس بلا دولة، مواطني بلدان أخرى، لهذه المسألة معنى ملح بالنسبة إلينا، لأن نضالنا ضد الحركة الصهيونية في البداية ومن ثم ضد إسرائيل، لطالما كان نضالا هدفه الوصول إلى الخطوة الأولى(...) في ظل المناخ الحالي لمفاوضات السلام، كما تسميه الولايات المتحدة بعملية السلام، لا توجد عبارة يستخدمها الامريكيون أو الاسرائيليون تشير إلى أننا نتمتع بـــ[حق] تقرير المصير"[x]. فنجده بذلك يحاول توثيق امتلاك الفلسطيني للأرض رادا على ادعاءات إسرائيل والرأي العالمي المضللة المشككة في الوجود الفلسطيني، فيقول:"إقامة دولة إسرائيل كانت عبارة عن كارثة، إنه صراع مأس (...) جاءت إلى فلسطين بقايا الشعب اليهودي الذي تعرض في أوروبا لمذابح على أيدي المعادين الغربيين للسامية وكان جزء منهم قد جاء قبل الحرب العالمية الثانية، لكن وضع الناجين ودولتهم وإقامة دولتهم، كانت على دمار مجتمعنا "[xi].

إذا فادوارد سعيد لم يفصل نفسه عن انتمائه للعالم العربي فنجده منافحا عن الهوية العربية؛ ولذلك فلا مناص من القول أن الهوية الانسانية يمكنها أن تتم بالتنوع والتعدد من خلال تشكلها من انتماءات متعددة ووجوه متحولة" فليست الهوية بنية مغلقة وإنما هي بنية متحولة باستمرار (...)إنها مصطلح يعكس نفسه تحت مجهر الزمن ومعاييره وفي سياق علاقة تبادلية تنهض على التفاعل مع معطيات الوجوه ومكونات المحيط، بحيث لا يمكن التعامل معه بمعزل عن إدراك مناحي تأثره الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي والقانوني،إلخ"[xii] ، ولذلك اكتسبت الهوية ما يسمى بالكونية أو العالمية التي تشتمل جميع الثقافات الانسانية من خلال إدراك الكون والتعايش معه، والهوية الكونية لدى

ادوارد سعيد هي أبعد من ذلك فتتجلى من خلال استقراء تجربته النقدية والشعورية أنها تقدم لنا صورة عالمية للإنسان المهمش [الفلسطيني] المقموع في وطنه وفي منفاه، ولعل هذا ما أدى "بدعاة اليمين الامريكي المتطرف، فـــي الادارة والكونغرس وفي المؤسسة الاكاديمية الأمريكية، ضرورة محاربة الاثر الذي مارسه إدوارد سعيد بشخصه وكتاباته على المؤسسة الاكاديمية الامريكية وعلى مراكز دراسات الشرق الأوسط فيها، وقد بدأت الحملة على ادوارد سعيد منذ سنوات طويلة كما نعلم؛ منذ وسمته مجلة كومنتري الصهيونية الامريكية بأنه "بروفيسور الإرهاب"، ثم عادت هذه المجلة لتشن عليه حملة شرسة محاولة تجريده من فلسطينيته، والادعاء بأنه يكذب بشان سيرته الذاتية ونشأته في مدينة القدس"[xiii]، وهذا هو حال المثقف الكوني المتمرد على ثقافة الآخر، المثقف الداعي إلى مقاومة الثقافة الامبريالية والاستعمارية الهمجية بكل اشكالها، هو ذلك المثقف النموذج من أمثال إدوارد سعيد الذي تمكن من اختراق الفكر والثقافة الغربية، وفضح العقلية الغربية القائمة اساسا على التسلط والهيمنة المتضمنة لكل عناصر الهمجية والصفات لا انسانية،" إنه ذلك الشعور الوسواسي الواعي أو غير الواعي بالتفوق والميل إلى الهيمنة، وكما يقول محمد الدعمي : لقد عبر هذا الموقف الغربي الفوقي عن نظرة دونية للماضي العربي الاسلامي من خلال الشعور بحرية استثمار تاريخنا(...) [و مصادرة ثقافتنا وحضارتنا] فعقدة التفوق تجاه الاخر غير الاوروبي متجذرة في العقلية الاوروبية"[xiv] والتي نتج عنها حب مبدأ تدمير هوية ووجود هذا الآخر فظهر بعد ذلك ما يدعى نظرية ما بعد الاستعمار ليصبح بعدها إدوارد سعيد هو ناقد هذا الفكر الاستعماري الجديد فكانت جهوده بعد ذلك جهودا مؤسساتية لهذا الفكر وتعد كتب سعيد (الإستشراق) و(الثقافة و الامبريالية) بمثابة مفاتيح نقدية بارزة في هذا المجال، بحيث انهما كتابان" ينطلقان في جوهرهما من هذا المكون [المفضي إلى ضرورة تحطيم قوالب الانماط الثابتة المفروضة على الفكر الانساني] فالكتاب الاول [الاستشراق] نقد ثقافي مضاد لكل البديهيات المؤمنة بكل اصولية نزاعة إلى المركزية الاوروبية بوصفها مصدر إشعاع تغمر بضيائها الثقافات الأخرى والعلة في ذلك ما قدمته الدراسات الإستشراقية التي صعد نجمها في مرحلة تاريخية ترافقت مع التوسع االإستعماري خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وفي الكتاب الثاني [الثقافة والامبريالية] تحليل للخطاب الادبي الغربي واعادة النظر في الكثير من المسلمات التي روج لها الخطاب الغربي في الاجناس الادبية والعلوم الانسانية (...) فالكتاب مقاومة نقدية إن صح التعبير لا تستلم للخطاب دون مساءلته"[xv]

رابعا: ما بعد الكولونيالية والانجاز النصي الجديد:

من ثم يمكن القول أن ادوارد سعيد أنموذج متميز لمثقف ما بعد الاستعمار الذي حمل غلى عاتقه مهمة نقد المستعمر وكشف كافة أشكال الاستعمار التي لا تزال موجودة وبشكل خفي باستتارها وراء الخطاب الاستعماري القائم على مبدأ الممارسة التهميشية والتضليلية للرأي العام العالمي بغرض التحكم في العلاقات في العالم أجمع من خلال "تمرير أخطر الانساق وأشدها تحكما فينا"[xvi] وهذا ما ابرزه "إدوارد سعيد بأن هناك سمات ملازمة للنصوص التي تناول البلدان المستعمرة، والتي مصدرها أنظمة عقائدية تهكيل القوالب الخطابية، وتعطيها المصداقية والقوة علاقات السلطة التي تجدها في الامبريالية(...) وحاول بيتر هيولم أن يأخذ من عمل إدوارد سعيد ونظرية الخطاب بصفة عامة للتنظير حول تعقيد الخطاب الاستعماري وبدل أن يفترض كما فعل سعيد، بأن هناك خطاب استعماري واحد فحسب، اعتبر أنه كانت هناك خطابات مختلفة متداولة في فترة الاستعمار لا تصور كلها الاهالي بطرق سلبية"[xvii]، وبهذا يمكن القول بأنه "يتسع مفهوم الناقد في منظومة إدوارد سعيد الفكرية والنقدية ليشمل الناقد الثقافي بالمفهوم الواسع الشامل: المفكر والمثقف والفيلسوف والاديب والمؤرخ والسياسي والأنثروبولوجي والاكاديمي الباحث في مجال العلوم الانسانية بعامة"[xviii].

ولذلك فلا مناص من القول أن "أهمية الناقد المثقف تكمن – بالنسبة إليه - في طرح الاسئلة الديكارتية المبنية على اشكالية كل ما هو موجود قابل للشك واعادة النظر والتفكير، فلا يقين إلا بعد الشك ولا جديد إلا بعد تحطيم قوالب الانماط الثابتة والتعميمات الاختزالية التي تفرض قيودا شديدة على الفكر الانساني وعلى التواصل بين البشر"[xix]، وهذا ما يحيلنا الى القول بان الشكل الهوياتي المثاقفاتي هو شكل من اشكال امتداد ظاهرة تمجيد الاختلاف الناتج عن الديناميكية الايديولوجية المتنوعة (اشتراكية /رأسمالية...)، كما انه تشكل في اطار الدمج السياسي الذي يتجاوز الحدود الوطنية وما تتضمنه هذه الاخيرة من معنى يرمي الى تواجد كل من الهوية والثقافة في تشكل جديد يخضع للعولمة العالمية،فنتج عن ذلك تصادم وصراع وتنافر بين العولمة والهوية الثقافية؛ إذ تسعى العولمة الى خلق منظومة واحدة تهدف الى القضاء على الحدود والخصوصيات، في حين تدافع الهوية عن التعدد والاختلاف وتسعى الى الاعتراف بالتنوع وترفض الذوبان، لذلك فعولمة الثقافة تعد اداة للهيمنة والسيطرة، وهذا كله أدى الى خلق الجدل المثار حول مسالة الهوية والثقافة وما مدى تجسيد مظاهر الثقافة في المجتمع بشرط أن يحظى كل منا بهويته، ولذلك فادوارد سعيد ممن يعارض مبدأ الذوبان في الآخر لأن الهوية شبيهة ببطاقة الهوية الشخصية لأن"الهوية بطاقة يثبت فيها اسم الشخص وجنسيته ومولده وعمله"[xx] وهذا ما ادى الى انتاج الخطاب الكولونيالي / الاستعماري الذي لا يعد نتاج لإدراك المجتمعات فحسب بل يعد بمثابة معرفة تستغل من طرف مراكز استعمارية هدفها إخضاع الشعوب المحتلة والمستعمرة وهذا ما اشار اليه ادوارد سعيد في كتابه تغطية الاسلام في قوله:"اما فيما يتعلق بالاهتمام الاوروبي بالثقافات الاجنبية فلقد كانت هذه الظروف دائما تجارية او استعمارية او ناجمة عن التوسع الحربي والغزو وبناء الإمبراطوريات[xxi] .لكن من الضروري الاشارة الى ان الانكماش والانطواء على الذات لا يعد وسيلة ناجحة للوقاية من الذوبان في الاخر وتلاشي الهوية من خلال العولمة الثقافية هذه الاخيرة التي تعد ظاهرة واقعية تفرض نفسها بحكم النفوذ السياسي والضغط الاقتصادي والتغلغل المعلوماتي والاعلامي التي يمارسها النظام العالمي الجديد.

لذلك يجب اتباع مسار التعايش من خلال تطوير ذات الهوية دون التخلي عن الثوابت المكونة لها، وجعل هذا التطور والتحول الثقافي ليس موجها ضدنا بالضرورة وإنما هو لصلاحنا إن نحن حافظنا على هويتنا الثقافية في ظل التعاطي الحر الايجابي مع العالم والمستجدات الدولية وآنذاك تصبح الهوية هي مجموع"القيم المطلقة والخالدة التي تسهم في صوغ حقيقة الانسان الممكنة كحقيقة تتأسس عليها إمكانية ذهابه في رحلة تحمله الى كمال محتمل فالهوية [بذلك اصبحت] تماثل النواة (أو البذرة) من حيث ممكنات تحولهما الى شجرة او نبتة، حيث كلاهما جوهر كامن قابل للانخراط في صيرورة تحوله؛ [و من ثم] فالهوية هي ثابت الانسان وتحولاته أو هي جوهره المجرد وتجلياته العيانية الممكنة والمتغــايرة والمتحولة في سياق صيرورة دائمة"[xxii] وعليه فمساءلة الهوية الثقافية بغرض قراءتهــا ومعرفة كنهها يفضي بنا الى القول أنها"ليست مطلقا يسبح في فضاء بلا هُوية [بلا معنى و بلا تعريف] وانما هي ذات انسانية فردية أو جماعية تنصهر في ذات ثقافية تقوم على التعدد والوحدة وعلى التحول الدائم على محور ثبات تماما مثل القناع الذي هو بنية عميقة أو منظومة علاقات ثابتة ومتحولة يمكن إدراكها من خلال المحور الثابت الذي تتحرك عليه تحولات ترسخ دلالة أن الهوية في تخلُّق مستمر وأن الذات لا تجد حضورها إلا بانفتاح الأنا على ذات تتجسد في آخر سواها "[xxiii] وهذا ما أدى الى الكثيرين من دعاة الانفتاح والعصرنة إلى امتزاج واندماج الهويات الثقافية يقول علي حرب :" لا تكن ذاتك ولا غيرك بل تغير عما انت عليه لكي تستطيع التواصل والتعايش مع غيرك بلغة الحوار والمفاوضة وثقافة المشاركة الفعالة والمسؤولية المتبادلة"[xxiv] أي ان الهوية الثقافية في تحول مستمر يفرضــه التنوع والتعدد والانفتاح العالمي الذي يضم مجموعة من الثقافات واللغات والاعراف المتعددة والمختلفة غير ان ثمة قيم ومثل عليا وثوابت تتوحد حولها الامم والشعوب وتشكل بالنسبة لها إرثا مشتركا ينبغي حمايته والدفاع عنه لذلك يجب توجيه التنوع الثقافي لصالح جهود التنمية والتحضر ومن ثم فالاختلاف يمكن أن يستغل كحافز للاستقرار إذا كانت مرجعيته

هوية الامة وجماع الوطن والدولة بوصفها التجسيد القانوني لوحدة الوطن والامة، وما يمس واحدة من هذه الاخيرة يمس الهوية الثقافية لها.

خامسا: الهوية الثقافية واستراتيجية الوعي المثاقفاتي لدى المثقف النموذجي/ادوارد سعيد:

وبهذا نخلص الى القول أنه يمكن لاستراتيجيات الهوية أن تعالج الثقافة او تغيرها فالهوية هي السمة الجوهرية العامة لثقافة من الثقافات وهذا ما يبرر اختلاف الهويات الثقافية من مجتمع إلى آخر ومن عصر الى عصر بحكم اختلاف التوجهات الفكرية والايديولوجية لمنتجي ثقافة ما.

وبهذا المعنى يؤكد ادوارد سعيد أن الهوية الفلسطينية لم تتعارض فيها مكونات الثقافة وانفتاحها مع خصائص الهوية الوطنية والقومية فيتحدث عن الهوية الفلسطينية في معرض حديثه عن دور الثقافة في حركات المقاومة بقوله أن"المقاومة الفلسطينية (...) تضم إطارا كاملا من اشكال التعبير الثقافي الذي بات يشكل جزءا من تماسك الهوية الفلسطينة وبقائها فهناك سينما فلسطينية ومسرح فلسطيني وادب بكل ضروبه، كما يتوافر خطاب فلسطيني نقـدي وسياسي، وعندما يتعلق الامر بالهوية السياسية عندما تكون عرضة للتهديد، فان الثقافة تمثل اداة للمقاومة في مواجهة محاولات الطمس والازالة والاقصاء. إن المقاومة شكل من اشكال الذاكرة في مقابل النسيان وبهذا الفهم أعتقد أن الثقافة تصبح على قدر كبير من الاهمية لكن هناك بعدا آخر للخطاب الثقافي يتعلق بالقدرة على التحليل بمعنى ان تتخطى القوالب الجاهزة وتضطلع بمهمة تصحيح الاكاذيب"[xxv] .

ولعل أن الهوية الثقافية الفلسطينية هي مرتبطة بالمقاومة من أجل التحرر وإثبات الذات والوجود الفلسطيني، يقول ادوارد سعيد: "إن هويتنا تقيد وتحبس وتحاصر في جزر صغيرة خائفة ضمن محيط غير مضياف تحكمه قوة عسكرية عليا تستخدم رطانة إدارة حكومية تؤمن بالطهارة العرقية الخالصة"[xxvi] .

وفي ضوء ما سبق ندرك ما حققه الحضور النصي الادواردي في انشاء خطاب مغاير للمألوف من خلال الخروج عن النمطية السائدة وجعل الهامشي – في نظر الأغلبية - هو الموضوع المركزي بحيث"تمكن نص ادوارد من اختراق حجب التقاليد الثقافية الغربية التي شيدت على مدى عقود طويلة في القرنين الماضيين واستطاع ان يحول الانظار إلى ما هو هام وحيوي و كوني مثل حديثه عن القضية الفلسطينية بوصفها القضية الام و الهوية والنموذج في مقاومة الثقافة الامبريالية فقد جعلها في صلب المشهد العالمي حتى انه يمكن القوا احيانا لا يمكنك أن تكون فلسطينيا اكثر من ادوارد سعيد لنه يحمل فلسطينيته في دمه وفكره ومنفاه (...) واينما حل وارتحل تكون فلسطين قضيته الاولى التي تسبب له الاشتباك مع المؤسسات السياسية والثقافية في الغرب"[xxvii] ولذلك كان ادوارد أنموذجا متميزا للمثقف ذي الخصائص المتفردة .

ومن ثم نخلص الى القول أنه إذا كان"كل الناس مثقفون فان باستطاعة المرء أن يقول ولكن ليس لكل إنسان وظيفة المثقف في المجتمع"[xxviii] هذه الوظيفة القائمة اساسا على مبدأ المعارضة للوضع القائم لا المحاباة والسير في ركب التُبّعْ يقول ادوارد سعيد:"دور المثقف هو ان يعارض وانا افكر بهذا على انه دور نحتاجه بشكل قطعي، بل بشكل يائس أنا لا اقصد أن يتم ذلك بطريقة سخيفة وسلبية فانا اقف ضد ذلك ولكنني عندما اكون معارضا فان بوسعي أن أمحص وان احكم وان انتقد وان اختار على نحو يجعل من الاختيار والمداخلة أمرين يعودان الى الفرد إن من المهم أن تكون جزءا من كل آخر"[xxix].

الهوامش:

كلمة.أبو ظبي.ط1. 2011.

15. يحي عمارة:التاريخ و النظرية الادبية.جريدة القدس العربي.السنة الحادية والعشرون. العدد6257 .الجمعة17 جويلية 2009 .

---

[i]/ مجموعة من الاكادميين: موسوعة الاستشراق.ابن نديم للنشرو التوزيع.الجزائر.ط1. 2015..ص506.

[ii]/ فخري صالح:إدوارد سعيد دراسة و ترجمات.الدار العربية للعلوم ناشرون.لبنان.2009.ط1.ص23

[iii]/ إدوارد سعيد: صور المثقف.تر: غسان غصن. دار النهار للنشر. بيروت/ لبنان. دط. 1996. ص68

[iv]/ المرجع نفسه ص 68.

[v]المرجع نفسه. ص 68.

[vi] / مجموعة من الاكاديميين: موسوعة الاستشراق. ابن النديم للنشر. الجزائر. ط1 . 2015 .ص67.

[vii]وليام هارت: إدوارد سعيد و المؤثرات الدينية و الثقافية.تر: قصي أنور الذبيان. هيئة أبو ظبي للثقافة و التراث كلمة.أبو ظبي.ط1. 2011.ص102-103

[viii]إدوارد سعيد: تعقيبات عن الاستشراق.تر:صبحي حديدي.المؤسسة العربية للدراسات و النشر.بيروت/لبنان.ط1. 1996. ص156-157

[ix]/ ادوارد سعيد: خارج المكان(مذكرات).تر:فواز طرابلسي.دار الاداب.بيروت/لبنان.ط1. 2000. ص22

[x]ادوارد سعيد : السلطة و السياسة و الثقافة(حوارات مع ادوارد سعيد). تر: نائلة قليقلي حجازي. دار الاداب للنشر.بيروت/لبنان.ط2008.1.ص273.

[xi]/ المرجع نفسه .ص ص275-276.

[xii]/عبد الرحمن بسيسو: الثقافة و معركة الدفاع عن الهوية. وزارة الثقافة/مشروع الخطة الاستراتيجية للثقافة الوطنية.غزة.16 افريل 2005.ص04

[xiii]/فخري صالح: ادوارد سعيد دراسة و ترجمات.ص29.

[xiv]/علي ابراهيم النملة: صناعة الكراهية بين الثقافات و اثر الاستشراق في افتعالها.دار الفكر.دمشق.2008.ص ص21-22

[xv]/ يحي عمارة:التاريخ و النظرية الادبية.جريدة القدس العربي.السنة الحادية و العشرون.العدد6257.الجمعة17جويلية2009.ص10.

[xvi]/ عبد الله الغذامي: النقد الثقافي .المركز الثقافي العربي.المملكة المغربية/الدار البيضاء.2005.ص77

[xvii]/ حفناوي بعلي:مدخل في نظرية النقد الثقافي.منشورات الاختلاف.الجزائر.ط2007.1.ص ص65-66.

[xviii]المرجع نفسه.ص85.

[xix]يحي عمارة:المثقف الكوني بين التاريخ و النظرية الادبية. ص10.

[xx]/ عبد الرحمن بسيسو: الثقافة و معركة الدفاع عن الهوية.ص04.

[xxi]/ ادوارد سعيد: تغطية الاسلام.تر:محمد عناني.رؤية للنشر و التوزيع.القاهرة/مصر.ط1. 2005. ص281.

[xxii]/ عبد الرحمن بسيسو:الثقافة و معركة الدفاع عن الهوية.ص5.

[xxiii]/ المرجع نفسه.ص6.

[xxiv]/ علي حرب: حديث النهايات-فتوحات العولمة و مازق الهوية.المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء/بيروت. دط.2000.ص ص 194-195.

[xxv]/ ادوارد سعيد: الثقافة و المقاومة. تر:غلاء الدين ابو زينة.دار الاداب.بيروت.دط.د ت.ص143.

[xxvi]ادوارد سعيد: بعد الشماء الاخيرة/حيوات فلسطينية.ص ص19-20.(ضمن كتاب فخري صالح: ادوارد سعيد دراسة و ترجمات.ص35.

[xxvii]/ يحي عمارة:المثقف الكوني بين التاريخ و النظرية.ص10.

[xxviii]/ فخري صالح: ادوارد سعيد دراسة و ترجمات.ص113.

[xxix]/ ادوارد سعيد:الثقافة و المقاومة.ص94.

بيبلوغرافيا:

1. ادوارد سعيد: الثقافة و المقاومة. تر:غلاء الدين ابو زينة.دار الاداب.بيروت.دط.د ت.
2. ادوارد سعيد: تغطية الاسلام.تر:محمد عناني.رؤية للنشر و التوزيع.القاهرة/مصر.ط1. 2005.
3. ادوارد سعيد: خارج المكان(مذكرات).تر:فواز طرابلسي.دار الاداب.بيروت/لبنان.ط1. 2000.
4. إدوارد سعيد: صور المثقف.تر: غسان غصن. دار النهار للنشر. بيروت/ لبنان. دط. 1996.
5. ادوارد سعيد : السلطة و السياسة و الثقافة(حوارات مع ادوارد سعيد). تر: نائلة قليقلي حجازي. دار الاداب للنشر. بيروت/ لبنان .ط 1 . 2008.
6. إدوارد سعيد: تعقيبات عن الاستشراق.تر:صبحي حديدي.المؤسسة العربية للدراسات و النشر.بيروت/لبنان.ط1. 1996.
7. حفناوي بعلي:مدخل في نظرية النقد الثقافي.منشورات الاختلاف.الجزائر.ط1 .2000.
8. عبد الله الغذامي: النقد الثقافي .المركز الثقافي العربي.المملكة المغربية/الدار البيضاء.2005.
9. علي حرب: حديث النهايات-فتوحات العولمة و مازق الهوية.المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء/بيروت. دط.2000.
10. عبد الرحمن بسيسو: الثقافة و معركة الدفاع عن الهوية. وزارة الثقافة/مشروع الخطة الاستراتيجية للثقافة الوطنية.غزة.16 افريل 2005.
11. علي ابراهيم النملة: صناعة الكراهية بين الثقافات و اثر الاستشراق في افتعالها.دار الفكر.دمشق.2008.
12. فخري صالح:إدوارد سعيد دراسة و ترجمات.الدار العربية للعلوم ناشرون.لبنان.2009.ط1.
13. مجموعة من الاكاديميين: موسوعة الاستشراق. ابن النديم للنشر. الجزائر. ط1 . 2015 .
14. وليـــام هارت: إدوارد سعيد و المؤثرات الدينية و الثقافية.تر: قصي أنور الذبيان. هيئة أبو ظبـــي للثقافـــــة والتراث كلمة.أبو ظبي.ط1. 2011.
15. . يحي عمارة:التاريخ و النظرية الادبية.جريدة القدس العربي.السنة الحادية والعشرون. العدد6257 .الجمعة17 جويلية 2009 .